وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها ، وهذا هو الاعجاز الذي تقصر الافهام عن ادراكه» (١) .

وكانت مسألة اعجاز القرآن أثر كبير في تطور البلاغة العربية، وكان المتكلمون أول من بحثوا في الاعجاز ، واختلفت وجهات النظر في ذلك وتشعبت سبل القول، لأن الوصول إلى ذلك صعب، وتحديد البلاغة في كتاب الله أصعب. ولكنهم - مع ذلك - مضوا يتلمسون بلاغة القرآن ويبينون اعجازه، فكانت دراساتهم أحسن مصدر للبلاغة وأجلّ مورد لمن أراد أن يتذوق الكتاب العزيز ويفهم البيان .

ومن أشهر الذين عنوا بهذه المسألة أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (- ٣٠٦هـ) الذي ألف كتاب «اعجاز القرآن في نظمه وتأليفه» ، ولم يصل هذا الكتاب لنعرف الموضوعات التي عالجها وان كان يبدو من العنوان انه يتحدث عن اسلوب كتاب الله واعجازه في النظم والتأليف .

ومنهم أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (- ٣٨٦هـ) صاحب رسالة «النكت في اعجاز القرآن» ، وقد ذهب إلى أن القرآن معجز ببلاغته، وهو أعلى طبقات الكلام .

وأبو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي (- ٣٨٨هـ) مؤلف رسالة «بيان أعجاز القرآن» ، وقد رأى أن البلاغة ترجع إلى جمال ألفاظ القرآن وحسن نظمه وسمو معانيه وتأثيره في النفوس.

ومنهم أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (- ٤٠٣هـ) الذي ألف كتاب «اعجاز القرآن» وهو من الكتب المهمة، وقد ذهب الباقلاني إلى أن كتاب الله معجز لأنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب .

والقاضي أبو الحسن عبد الجبار الاسد آبادي (- ٤١٥هـ) الذي كان الجزء السادس عشر من كتابه «المغني في أبواب التوحيد والعدل» خاصا باعجاز القرآن ، وقد ذهب الى أن القرآن معجز بنظمه ، وهي الفكرة التي بني عليها عبد القاهر الجرجاني كتابه « دلائل الاعجاز » .

وهذه الكتب وغيرها تعدّ من أهم مصادر دراسة البلاغة، لأنها تعرضت لأسلوب القرآن الكريم وتكلمت على أساليب العرب في الكلام وقد كان أثرها عظيماً في تطور البلاغة واستقلالها عن الدراسات الأدبية والنقدية.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢.

المفسرون :

ويتصل بالقرآن وأثره المفسرون، وهم الذين ينظرون في كتاب الله تعالى ويفسرون ألفاظه ويوضحون معانيه ويبينون مقاصده وأهدافه ، ويشرحون ما فيه من قيم رفيعة ونظرات عميقة، ويظهرون فنون القول فيه وروعة البيان ،ولكي يستطيع المفسر أن يقوم بهذا كله لابد من أن يطلع على علوم اللغة العربية لينفذ إلى أسرار القول ويغوص على معانيه: والبلاغة إحدى الوسائل المهمة التي تكشف أسرار الاعجاز وتوجه الآيات التي لايمكن حملها على الظاهر: وقد شعر المفسرون بهذا العمل العظيم فأخذوا يضعون لدراساتهم القرآنية مقدمات بلاغية أو يخوضون في مباحثها حينما يتحدثون عن الآيات وبلاغتها، وصاروا ينبهون إلى أهمية ذلك، ويتضح ذلك في مقدمة تفسير الطبري وتفسير الكشاف للزمخشري، فقد أشارا إلى أهمية معرفة البلاغة لأن القرآن عربي وأسلوبه عربي، ولكي تكون آياته واضحة ينبغي معرفة أساليب العرب وفنون القول عندهم : وقد نعى السكاكي على المفسر الذي لايعرف من البلاغة شيئاً، قال: «الوقف على تمام مراد الحكيم – تعالى وتقدس – من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين – المعاني والبيان – كل الافتقار، فالويل كل الويل لمن يتعاطى التفسير وهو فيهما راجل» (١).

وأصبحت كتب البلاغة سبيلا تفضي إلى رحاب القرآن، ومعالم يهتدي بها الدارسون ويستعين بما فيها من ومضات مشرقة ولمحات بديعة المفسرون ومن هنا كانت البلاغة مقدمة لدراسة كتاب الله وتفسيره وإدراك فصاحته وبلاغته ،وصار الأساتذة لايقدمون على تدريس كتب التفسير إلا بعد أن يلم طلابهم بطرف من البلاغة وفنونها كما فعل يحيى بن حمزة العلوي حينما ألف كتابه «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز» ليكون عوناً لمن شرع في قراءة تفسير الكشاف عليه ،

---

(١) مفتاح العلوم ص ٧٧.

وكتب التفسير كلها تتصل بالبلاغة، ولعل أهم تفسير عني بالبلاغة «الكشاف» لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (– ٥٢٨هـ) الذي جمع فيه كثيراً من فنون البلاغة واستعان بها في فهم كلام الله وإظهار مافيه من روعة وجمال.

ويتصل بالقرآن الكريم الأصوليون وهم أصحاب الصناعة الثانوية في فهمهم للشرع الأسلامي من كتاب الله وحديث الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – واستخراج أصول التشريع. وقد أثر هؤلاء في البلاغة، وفي كتبهم بحوث مستفيضة عن الخبر والإنشاء، والحقيقة والمجاز، وهي بحوث تدل على استئثار علم أصول الفقه بها.

ومن الكتب التي عنيت بالبلاغة وأثرت فيها كتاب «الرسالة» للإمام محمد بن أدريس الشافعي (– ٢٠٤هـ)، وكتاب «المعتمد في أصول الفقه» لأبي الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري المعتزلي (– ٤٣٦هـ) وكتاب «المُستَصفَى من علوم الاصول» للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (– ٥٠٥هـ)، وكتاب «الاحكام في أصول الأحكام» لأبي الحسن علي بن أبي علي سيف الدين الآمدي (– ٦٣١هـ).

اللغويون والنحاة :

ومن الذين أثروا في نشأة البلاغة وتطورها اللغويون والنحاة، وقد كانت لهم يد طولى في ذلك، وظل دورهم مشهوداً منذ عهد التدوين واستطاعوا أن يسيطروا على مناهج للدرس ويرفعوا لواء المحافظة على اللغة ويردّوا المحدثين وما ذهبوا إليه. وأخبار الخصومة بين الشعراء واللغويين والنحاة مستفيضة، من ذلك أن ابن أبي إسحاق اعترض على الفرزدق لرفع (مجلف) في قوله:

وعضُّ زمانٍ يا ابن مروان لم يَدَعْ من المال إلاّ مسحتاً أو مجلّفُ

فقال: علام رفعت «مجلف»؟ فرد الفرزدق: على مايسوؤك وينوؤك، علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا (١) وكان الخليل بن أحمد يقول لابن مناذر: «إنما أنتم معشر الشعراء تبع لي وأنا سكان السفينة، إن قرظتكم ورضيت قولكم نفقتم

(١) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٦ وما بعدها.

وإلا كسدتم «فقال ابن مناذر: «والله لأقولن في الخليفة قصيدة امتدحه بها ولا أحتاج إليك فيها عنده ولا إلى غيرك» (١).

وكانوا يستهينون بالنحاة ولا يقبلون أحكامهم، قال أبو أحمد العسكري: «أخبرنا أبو بكر محمد بن يحيى قال: حدثني علي بن العباس قال: رآني البحتري ومعي دفتر فقال: ماهذا؟ فقلت: شعر الشنفرى. قال: وإلى أين تمضي؟ قلت أقرأه على أبي العباس أحمد بن يحيى. قال: رأيت أبا عباسكم هذا منذ أيام فلم أر له علماً بالشعر مرضياً ولا نقداً له ورأيته ينشد أبياتاً صالحة وبعيدها إلا أنها لاتستوجب الترديد والاعجاب بها» (٢). ووقف بعض البلاغيين بوجه اللغويين والنحاة أيضاً وسخروا منهم كابن الأثير الذي قال وهو يتحدث عن ابن جني «لكن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والإعراب» (٣).

إن هذا الصراع بين اللغويين والنحاة والشعراء أفاد الأدب ودفع الجميع إلى البحث والتفكير فكانت الكتب العظيمة والآراء السديدة، وإذا كان موقف الشعراء يتسم بالمغالاة، فإن اللغويين والنحاة أثروا في البلاغة، وكانت لهم وقفات محمودة والتفاتات بارعة دخلت كتب البلاغة فيما بعد. ومن أقدم الذين اهتموا باللغة وشواردها والنظر في الشعر واستخلاص قواعده معمر بن المثنى (– ٢٠٨هـ) المعروف بأبي عبيدة، وفي كتابه «مجاز القرآن» كثير من الإشارات إلى فنون البلاغة وأساليب التعبير.

ومنهم أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (– ٢١٦هـ) الذي كانت له آراء نقدية وبلاغية تمثل ذوقه وذوق عصره، ويتضح ذلك في كتابه «فحولة الشعراء» وفي الآراء الكثيرة التي تناقلتها كتب البلاغة والنقد.

(١) الاغاني ج ١٨ ص ١٨٤.
(٢) المصون في الادب ص ٤.
(٣) المثل السائر ج ١ ص ٣٨٣.

وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد (– ٢٨٥هـ) الذي ذكر كثيراً من فنون البلاغة في كتابه «الكامل» ، وكان كلامه على التشبيه من أوسع ما عرف في عهده ، وقد صار عمدة البلاغيين حينما درسوا هذا الفن وقسموه ومثّلوا له .

وأبو الحسين أحمد بن فارس (– ٣٩٥هـ) الذي كان كتابه «الصاحبي» من أهم كتب اللغويين التي عرضت لموضوعات البلاغة ، ولعله أول من تحدث بوضوح عن الخبر والانشاء حينما قسم الكلام إلى : خبر واستخبار ، وأمر ونهي ، ودعاء وطلب ، وعرض وتحضيض ، وتمنٍّ وتعجب (١) . وتحدث عن موضوعات كثيرة أخرى كالحقيقة والمجاز ، والحذف والاختصار ، والزيادة والتكرار ، والتقديم والتأخير ، والاعتراض والإيماء ، والتهكم ، والكناية ، والإفراط ، والإستطراد ، والتأكيد ، وغيرها .

ومن النحاة الذين كانت كتبهم مادة خصبة للبلاغيين أبو بشر عمرو بن عثمان ابن قنبر (– ١٨٠هـ) صاحب الكتاب المشهور .

وأبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (– ٢٠٧هـ) ، مؤلف «معاني القرآن» .

وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (– ٢٩١هـ) صاحب «قواعد الشعر» .

وعبد القاهر الجرجاني (– ٤٧١هـ – أو ٤٧٤هـ) صاحب «دلائل الاعجاز» و «أسرار البلاغة» .

وقد كانت لكتب هؤلاء النحاة أثر في البلاغة لأنها عنيت بالأساليب العربية وذكرت كثيراً من المصطلحات التي دخلت في كتب البلاغة وأصبحت مصطلحات علمية .

الشعراء والكتّاب :

وأثّر الشعراء في البلاغة ، وقد كانوا يعنون بالقول ويجودون أشعارهم وينقحونها منذ عهدهم الأول ، وقد دلت الملاحظات البيانية على أنهم كانوا أصحاب ذوق ومعرفة بجيد الشعر ورديئه . ونما ذوقهم حينما تقدم بهم الزمن وكثرت ملاحظاتهم حتى إذا ماجاء العصر العباسي ودخل العرب حياة جديدة تطورت نظرتهم إلى

---

(١) ينظر الصاحبي ص ١٧٩ وما بعدها .

الشعر وإدراكهم لما فيه من روعة وجمال أو تصنع وتطبع: وقد رُوِيَ ان بشار ابن برد كان ينقد الشعر ويشير إلى جيده ورديئه، وأنشد قول الشاعر:

وقد جعل الأعداء ينتقصوننا ... وتطمع فينا ألسن وعيون
ألا إنما ليلى، عصا خيزرانة ... إذا غمزوها بالأكف تلين

فقال: والله لو زعم انها عصا مخ أو عصا زبد، لقد كان جعلها جافية خشنة بعد أن جعلها عصا، ألا قال كما قلت:

ودعجاء المحاجر من معدّ ... كأن حديثها ثمر الجنان
إذا قامت لمشيتها تثنت ... كأن عظامها من خيزران (١)

وقال: ولم أزل منذ سمعت قول امرىء القيس في تشبيه شيئين شيئين في بيت واحد حيث يقول:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً ... لدى وكرها العناب والحشف البالي

أعمل نفسي في تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد حتى قلت:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه(٢)

وفي كتب الأدب كثير من هذه الأحكام الي تدل على مكانة الشعراء في العصر العباسي وتوجيههم النقد والبيان. قال ابن المعتز: «البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ماهو»(٣). وقال ابن رشيق القيرواني: «أهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب ومثل وخبر وما أشبه ذلك، ولو كانوا دونهم بدرجات، وكيف وأن قاربوهم أو كانوا منهم بسبب؟ وقد كان أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لايجرون مع خلف الاحمر حلبة هذه الصناعة، أعني النقد، ولا يشقون له غباراً لنفاذه فيها وحذقه بها واجادته لها»(٤).

---

(١) الاغاني ج ٣ ص ١٥٤.
(٢) الاغاني ج ٣ ص ١٩٦.
(٣) البديع ص ٥٨.
(٤) العمدة ج ١ ص ١١٧.

وكان ابن المعتز (– ٢٩٦هـ) الشاعر العباسي أكثر الشعراء تأثيراً في البلاغة، فقد وضع كتابه «البديع» الذي تحدث فيه عن خمسة فنون من البديع هي: الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد اعجاز الكلام على ماتقدمها والمذهب الكلامي: وتكلم على ثلاثة عشر فناً وسماها «محاسن الكلام» وهي: الالتفات، والاعتراض، والرجوع، وحسن الخروج، وتأكيد المدح، وتجاهل العارف، والهزل يراد به الجد، وحسن التضمين، والتعريض والكناية، والافراط في الصفة، وحسن التشبيه، ولزوم مالا يلزم، وحسن الابتداء، وكانت هذه الفنون عمدة البلاغيين فنبوا عليها كتبهم وذكروا ماقاله ابن المعتز وأضافوا اليها فنوناً كثيرة.

ومن الشعراء الذين كانت لهم مشاركة في البلاغة الشريف الرضي (– ٤٠٦هـ) صاحب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» و«المجازات النبوية».

وابن رشيق القيرواني (– ٤٦٣هـ) مؤلف «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده» و «قراضة الذهب».

وابن سنان الخفاجي (– ٤٦٦هـ) مؤلف «سر الفصاحة».

وأسامة بن منقذ(– ٥٨٤هـ) صاحب «البديع في نقد الشعر».

وابن أبي الاصبع المصري (– ٦٥٤هـ) مؤلف «تحرير التحبير» و«بديع القرآن».

وكان للكتّاب أثر واضح في البلاغة، فقد صبغوا كثيراً من بحوثها بصبغة أدبية لما امتازوا به من أدب رفيع وذوق سليم. وهم الذين قال الجاحظ عنهم: «أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتّاب فإنهم قد التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً» (١). وقال ابن رشيق: «الكتّاب أرق الناس في الشعر طبعاً وأملحهم تصنيفاً وأحلاهم ألفاظاً وألطفهم معاني وأقدرهم على تصرف وأبعدهم من تكلف وقد قيل: الكتّاب دهاقين الكلام» (٢).

---

(١) البيان ج ١ ص ١٣٧.

(٢) العمدة ج ٢ ص ١٠٦.

وأخذت الكتابة مكانة مرموقة منذ العصر الأموي وكان عبد الحميد الكاتب (- ١٣٢هـ) ممن انتهت اليهم رياسة الكتابة في ذلك العهد. وكان ابن المقفع (- ١٤٣هـ) ممن أثّر في البلاغة ونقلت عنه كثير من الأقوال فيها. ولكن أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (- ٢٥٥هـ) من أكثر الكتّاب تأثيراً في البلاغة، وذلك بما ذكره في كتبه ولا سيما «البيان والتبيين»، و«الحيوان»، من فنون بلاغية وأساليب بليغة وأصبحت دراسته لمسائلها أساس البلاغيين وإن كان لم يبحثها بحثاً علمياً يقوم على التحديد الدقيق والتقسيم المنطقي الذي عرفته كتب المتأخرين.

ومن الكتّاب الذين أثروا في البلاغة قدامة بن جعفر (- ٣٣٧هـ) مؤلف «نقد الشعر».

وابن وهب الكاتب صاحب «البرهان في وجوه البيان»، وهو الكتاب الذي طبع قسم منه باسم «نقد النثر» ونسب إلى معاصره قدامة بن جعفر.

وأبو هلال العسكري (- ٣٩٥هـ) مؤلف «كتاب الصناعتين: أي: صناعة الشعر والنثر».

وابن ناقيا البغدادي (- ٤٨٥هـ) مؤلف «الجمان في تشبيهات القرآن».

وضياء الدين بن الأثير (- ٦٣٧هـ) صاحب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، و«الجامع الكبير»، و«الاستدراك».

وشهاب الدين محمود الحلبي (- ٧٢٥هـ) صاحب «حسن التوسل إلى صناعة الترسل».

المتكلمـــون :

وأثر المتكلمون في نشأة البلاغة وتطورها، والمتكلمون أصحاب الصناعة الكلامية في بحثهم للقرآن الكريم وتدليلهم على اعجازه واستنباط العقائد منه والدفاع عنه. وقد ظهر أثرهم مبكراً، وكان المعتزلة أظهر فرقة ألفت في البيان وتحدثت في فن

القول: ولعل صحيفة بشر بن المعتمر (ـ ٢١٠هـ) من أقدم الآثار في ذلك (١)، وقد تحدث فيها عن فن القول وأوضح فيها كثيراً من القضايا التي أصبحت عمدة البلاغيين والنقاد، من ذلك كلامه على الإستعداد للإنتاج الأدبي والإهتمام بتخير اللفظ والمعنى وتحديد المنازل التي يمر بها الأديب، وأولها منزلة البليغ التام الذي يكسو عباراته جمالاً يرجع إلى رشاقة الألفاظ وعذوبتها وجزالتها وسهولتها ووضوح المعاني وانسجامها. وثانيها منزلة من لم تسعفه طبيعته بالألفاظ الملائمة والقوافي الجيدة والمعاني الرائعة، وعليه أن يتأنى ويؤجل الكتابة إلى وقت نشاطه وفراغ باله، فإن كان له في الأدب طبيعة حقاً واتاه الكلام وانثالت عليه الألفاظ والمعاني. وثالثها: منزلة من شحّ طبعه ونضبت ينابيع القول عنده، وهذا لايأتي بجيد الكلام مهما حاول أو تكلف، وحريٌّ به أن يترك صناعة الأدب ويتحول إلى غيرها. وفي الصحيفة حديث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال، والمطابقة من أهم شروط البلاغة.

ومن المتكلمين الذين شاركوا في البلاغة وفن القول واصل بن عطاء (ـ ١٣١هـ) وعمرو بن عبيد (ـ ١٤٤هـ) وسهل بن هارون (ـ ١٧٣هـ) والجاحظ الأديب المعتزلي. وقد طبع هؤلاء وغيرهم البلاغة بطابع عقلي يعتمد على الاستدلال والدقة في التحديد والتقسيم.

وألف بعض فلاسفة المسلمين في البلاغة والنقد، ولكنهم كانوا يغرفون من بحر أرسطو طاليس، ويلخصون كتابيه «الشعر» و«الخطابة». فقد اختصر كتاب الشعر الكندي (ـ ٢٥٢هـ)، ولخصه أبو نصر الفارابي (ـ ٣٣٩هـ)، ولابن سينا (ـ ٤٢٨هـ) رسالة في «معاني الشعر»، ولابن الهيثم (ـ ٤٣٠هـ أو ٤٣٢هـ) رسالة في صناعة الشعر، ولابن رشد (ـ ٥٩٥هـ) تلخيص لشعر أرسطو.

ولكن الذوق العربي رفض مثل هذه الدراسات لأنها لاتحكّم الذوق في الأدب وقد صرح البحتري بذلك فقال:

(١) الصحيفة في البيان ج ١ ص ٣٥ وكتاب الصناعتين ص ١٣٤.

كلفتمونا حدود منطقكم   في الشعر يكفي عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق ما نوعه وما سببه
والشعر لَمْحٌ تكفي اشارته   وليس بالهَذْرِ طوّلت خطبه

وثار ابن الأثير (– ٦٣٧هـ) على أساليب الفلسفة ورأى في أعيانها من أمثال الفارابي وابن سينا رجالا أضلّهم أرسطو وافلاطون (١).

---

(١) ينظر المثل السائر ج ١ ص ٣١٠

المبحث الثاني
المدارس البلاغية

كانت العوامل المؤثرة في البلاغة كثيرة منها الادبية ومنها الكلامية ، وقد أدّى هذا الاختلاف في المؤثرات إلى ان تتجه البلاغة اتجاهين أطلق عليهما اسم «المدرسة الكلامية» و «المدرسة الادبية». وأمر هذين الاتجاهين أو المدرستين قديم، وقد نبه أبو هلال العسكري إلى منهجين في دراسة البلاغة، فقال :

«وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين وانما قصدت فيه قصد صناع الكلام من الشعراء والكتّاب، فلهذا لم أطل الكلام في هذا الفصل» (١) .

وقال السيوطي وهو يترجم لنفسه : «ورزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة» (٢). ولو لم تكن معالم هذين الاتجاهين واضحة ما وجدنا العسكري يصرح بها في عهد مبكر، ورأينا السيوطي بعده بقرون يفخر بأنه درس البلاغة على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة.

فما خصائص كل مدرسة؟ ومَنْ أشهر أعلامها ؟

المدرسة الكلامية :

كان للفلسفة وعلم الكلام أثر في الفكر العربي والاسلامي، ولم يسلم علم من العلوم من الأثر الفلسفي والكلامي، وكان للبلاغة نصيب عظيم من ذلك الاثر فتوثقت الصلة منذ عهد مبكر بينها وبين المنطق والفلسفة، وأخذت هذه الصلة تزداد قرناً بعد قرن حتى بلغت أوجها في القرن السادس للهجرة وما بعده. وقد انعكس ذلك في الدرس البلاغي، فكانت المدرسة الكلامية التي اهتمت بالتحديد الدقيق والتقسيم العقلي، وجعل التعريف جامعاً مانعاً، واستعمال أساليب المتكلمين

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٩.

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٥ وما بعدها.

في بحث الموضوعات وحصرها، والاكثار من الالفاظ الفلسفية والمنطقية. وقد ساق البلاغيون كثيراً من المقولات (١) عند القول في الملكة حين وردت في تعريف الفصاحة والبلاغة، وما صدّروا به البيان من بحوث الدلالات الوضعية والعقلية. وأدخلوا فيها بعض مسائل الفلسفة الطبيعية والالهية والخلقية كالكلام في الالوان والطعوم والروائح والحواس الانسانية ومقرها، والوهم والخيال والمفكرة والحس المشترك والاسباب والمسببات وغيرها. وأدخلوا فيها من الالفاظ الفلسفية والكلامية الشيء الكثير، مما لاصلة له بالبحث البلاغي الذي يعتمد أول ما يعتمد على الذوق السليم.

ومن شواهد الاثر الفلسفي في هذه المدرسة الاقلال من الامثلة الادبية، لان رجالها اهتموا بالتحديد المنطقي والحصر والتقسيم، فكانوا يذكرون لكل قاعدة شاهداً واحداً أو مثالاً قصيراً. وليتهم وقفوا عند ذلك، فهم كثيراً ما يذكرون أمثلة لاجمال فيها، لان صحة الشاهد أو المثال عندهم أصل كل شيء، أما جماله وما يبعث في النفس من احساس أو شعور فني فلم يوجهوا عنايتهم اليه. ولعل اهتمام المتأخرين منهم بالاختصار وتلخيص الكتب المتقدمة كان سبب الاقلال من الامثلة والشواهد والاكتفاء باقلها وأقصرها وبما ينسجم مع أذواقهم التي سيطرت عليها النزعة العقلية، وخير مثال على ذلك كتـــاب «التلخيص» للخطيب القزويني (– ٧٣٩هـ) الذي أوجز فيه مباحث البلاغة التي ذكرها السكاكي (–٦٢٦هـ) في كتابه «مفتاح العلوم»، فأصبحت جافة لا تنفع كثيراً مما اضطره إلى شرح كتابه بالايضاح ودفع الآخرين كالتفتازاني وبهاء الدين السبكي وعصام الدين الاسفراييني وغيرهم إلى شرحه أيضا.

وشاعت المدرسة الكلامية في المناطق الشرقية من الدولة الاسلامية حيث يقطنها خليط من الفرس والترك والتتر، وكانت خوارزم اكبر البيئات التي ظهر فيها

---

(١) المقولة : صفة من الصفات تحمل على الشيء كالمقولات التسع : الكمية والكيفية، والاضافة والمكان والزمان والوضع والملك والفعل والانفعال.

اقطاب هذه المدرسة كفخر الدين الرازي (- ٦٠٦هـ) صاحب «نهاية الايجاز في دراية الاعجاز» والسكاكي صاحب «مفتاح العلوم».

وأهم كتبها «دلائل الاعجاز» لعبد القاهر الجرجاني و«نهاية الايجاز في دراية الاعجاز» للرازي و«مفتاح العلوم» للسكاكي و«المصباح في اختصار المفتاح» لبدر الدين بن مالك و «تلخيص المفتاح» و «الايضاح» للقزويني و «عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح» لبهاء الدين السبكي و «المطول على التلخيص» و «المختصر» لسعد الدين التفتاز اني و«مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح» لابن يعقوب المغربي، وغيرها من شروح التلخيص الاخرى.

المدرسة الادبية :

كان القرآن الكريم من اهم العوامل التي طبعت بحوث البلاغة بطابع ادبي يعتمد على الذوق الرفيع قبل اعتماده على التحديد والتقسيم . وكان للكتاب والشعراء أثر واضح في البلاغة، فقد صبغوا كثيراً من موضوعاتها بصبغة ادبية لما امتازوا به من أدب غزير وذوق سلم. وكانت نتيجة تلك العوامل ان اتجهت البلاغة منذ عهد مبكر اتجاها ادبيا وسلكت طريقاً بعيداً عن المدرسة الكلامية ، وكانت لها خصائص واضحة تميزها عن المدرسة الاخرى، ومن ذلك انها لم تهتم كثيراً بالتحديد والتقسيم وان جنحت إلى ذلك فعلى غير تعمق ونفاذ والتزام للتصحيح التام للأصول المنطقية ولم تهتم باقتباس المنطقيات ومسائل الفلسفة بل نبذتها وحملت عليها وحاربتها ،

وكان ابن الاثير أحد أقطابها من الذين أنكروا ادخال الاساليب الفلسفية في البحث، ،قال : «اعلم ان ذلك الحصر كلي لا جزئي، ومحال ان تحصر جزيئات المعاني وماينفرع عليها من التفريعات التي لا نهاية لها، لا جرم ان ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم ولا يفتقر اليه فان البدوي البادي راعي الابل ماكان يمر

شيء من ذلك بفهمه ولا يخطر بباله، ومع هذا فانه كان يأتي بالسحر الحلال إن قال شعراً أو تكلم نثراً» (١).

ومن خصائص المدرسة الادبية استعمال المقاييس الفنية في الحكم على الادب ولذلك نجدها مرة تستطيع التعليل ومرة لا تستطيع ذلك، وترجعه إلى الذوق والاحساس الفني. ومن ذلك ان اسلوب كتبها سهل لا يحتاج إلى عناء كبير في فهمه كما يحتاج في قراءة كتب المدرسة الاخرى، وسبب ذلك ان معظم رجالها عاشوا في بيئات عربية كالعراق والشام ومصر، وكانوا إلى جانب ذلك شعراء أو كتاباً. أما رجال المدرسة الكلامية فقد عاشوا في بيئات أعجمية فغلبت على كتبهم العجمة ولم يكونوا أدباء بل كانوا من الفلاسفة والمتكلمين.

وأسرف رجال المدرسة الادبية في ذكر الشواهد والامثلة، وكانوا يذكرون القاعدة أو التعريف ثم يأتون بالامثلة الكثيرة. ولم تكن الامثلة مقصورة على الجملة أو بيت الشعر وانما تعدتها إلى القطعة الشعرية والرسالة الادبية. ويتضح هذا في جميع كتب المدرسة، فابن المعتز — مثلا — يذكر تعريف الاستعارة أو التجنيس ويورد بعد ذلك امثلة كثيرة ويفرق بين الحسن والرديء. وتبعه البلاغيون الآخرون في هذا المنهج كأبي هلال العسكري في «كتاب الصناعتين» وابن رشيق في «العمدة» وأسامة ابن منقذ في «البديع في نقد الشعر» وابن الاثير في «المثل السائر» و«الجامع الكبير» وابن أبي الاصبع المصري في «تحرير التحبير».

وقد سادت هذه المدرسة في المناطق الوسطى من العالم الاسلامي كالعراق والشام ومصر وشمالي افريقية.

وأهم كتبها التي تضمنت خصائصها كتاب «البديع» لابن المعتز و «كتاب الصناعتين» للعسكري و «العمدة» لابن رشيق و «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي و «أسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجاني و «البديع في نقد الشعر» لابن منقذ ، و «المثل السائر» و «الجامع الكبير» لابن الاثير و «بديع القرآن» و «تحرير التحبير »

(١) المثل السائر ج ١ ص ٣١٠.

لابن أبي الاصبع و «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» لشهاب الدين الحلبي .

هاتان هما المدرستان البلاغيتان، وقد كانت لكل واحدة منهما خصائص عامة ، ولكن هل يمكن وضع فاصل بين الذين اتجهوا اتجاها عقليا والذين نهجوا نهجا ادبيا؟ ليس من الممكن ذلك لان البلاغي الواحد كثيراً ما يمزج بين الطريقتين ويستفيد من الاتجاهين، فالجاحظ مثلا – وهو رأس فرقة اعتزالية سميت الجاحظية – نراه يميل إلى الفن ويحكم الذوق في كثير من الاحيان، وأبو هلال العسكري مع تأكيده انه لن يتبع طريقة المتكلمين نراه يتجه نحوهم في تقسيماته وتبويبه ويجري في مضمارهم ويخدم اغراضهم. وكان عبد القاهر الجرجاني يميل مرة إلى المدرسة الكلامية في كتابه «دلائل الاعجاز» ويتجه إلى المدرسة الادبية في كتابه «أسرار البلاغة»، وهو في كتابه الاول يجادل جدلاً منطقيا فيكرر اساليب أهل الجدل كقوله : «إن قلتم قلنا...» و «كيف لا يكون الامر كذلك...» و «ماهو إلا كذا وكذا...» وهو في كتابه الثاني أديب يعمد إلى التحليل الفني وابراز ما في الكلام من بلاغة وجمال لانه لا يريد ان يدافع دفاعا عقليا كما دافع عن القرآن في كتابه «دلائل الاعجاز».

ومن جمعوا بين الطريقتين في كتاب واحد يحيى بن حمزة العلوي (– ٧٤٩هـ) صاحب «الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وحقائق الاعجاز»، فهو في القسم الاول منه يسير على منهج أدبي واضح فيه التحليل والاكثار من الامثلة ، وهو في القسم الثاني من الكتاب يتبع طريقة المدرسة الكلامية في تصنيف موضوعات البلاغة وعرضها ، وفي الجدل وتقديم الادلة ، وقد يكون سبب ذلك انه في هذا القسم تعرّض لاعجاز القرآن، وهو مما يدفع الباحث إلى النظر العقلي وردّ الشبهات بالادلة والبراهين.

هذا ماكان من أمر البلاغة العربية قديما، أما اليوم فان المنهج الحديث يتطلب الاستفادة مما سبق لبناء بلاغة جديدة تعتمد على ذوق العصر وتستند إلى ماظهر من ادب وفنون.

الفصل الثاني

الفصاحة والبلاغة

المبحث الاول

الفصاحة

لفظة «الفصاحة» مما شاع وعرفه العرب بمفهومه اللغوي قبل أن تأخذ الالفاظ دلالتها الفنية : ونجد لها في المعاجم دلالتين :

الاولى : لغوية تقوم على المعنى الاول الذي وضعه العرب واستعملوه قبل أن تظهر علوم البلاغة والنقد . ففي لسان العرب : «يوم مفصح : لا غيم فيه ولا قرّ» .

أفصح اللبن : ذهب اللبأ عنه . فصح اللبن : اذا اخذت عنه الرغوة : قال نضلة السلمي :

رأوه فـازدروه وهو خـرق وينفع أهله الرجل القبيح
فلم يخشوا مصالته عليهم وتحت الرغوة اللبن الفصيح

أفصحت الشاة والناقة : خلص لبنها . أفصح الصبح : بدا ضوؤه واستبان ، وكل ما وضح فقد أفصح ، وكل واضح مفصح . ويقال : قد فصحك الصبح ، أي بان لك وغلبك ضوؤه . فصحه الصبح : هجم عليه.

الثانية : دلالة تقرب من المعنى الاصطلاحي الذي تعارف عليه البلاغيون ، ففي اللسان : «الفصاحة : البيان، فَصُحَ الرجل فصاحة» فهو فصيح من قوم فصحاء وفصاح وفُصح ، وامرأة فصيحة من نسوة فصاح وفصائح . رجل فصيح وكلام فصيح ، أي : بليغ .

لسان فصيح ، أي : طلق . وقد جاء في الشعر في وصف العجم : أفصح ، يريد به بيان القول وان كان بغير العربية ، كقول أبي النجم :

أعجم في آذانها فصيحا

يعني : صوت الحمار انه اعجم ، وهو في آذان الأُتن فصيح بيّن ؛

وفَصُحَ الاعجمي فصاحة : تكلم بالعربية وفهم عنه . وقيل : جادت لغته حتى لايلحن . أفصح كلامه افصاحا وأفصح تكلم بالفصاحة وكذلك الصبيّ . يقال : أفصح الصبي في منطقه افصاحا اذا فهمت ما يقول في أول ما يتكلم . أفصح الاغتم : اذا فهمت كلامه بعد غتمته . أفصح عن الشيء افصاحا اذا بينه وكشفه . فَصُحَ الرجل وتفصَّح اذا كان عربيّ اللسان فازداد فصاحة . وقيل تفصَّح في كلامه وتفاصح : تكلف الفصاحة . يقال :

ما كان فصيحا ولقد فصح وهو البين في اللسان والبلاغة : والتفصح استعمال الفصاحة وقيل : التشبه بالفصحاء .

وقيل : جميع الحيوان ضربان : أعجم وفصيح ، فالفصيح كل ناطق ، والاعجم كل مالا ينطق .

الفصيح في اللغة المنطلق اللسان في القول الذي يعرف جيد الكلام من رديئه ؛ أفصح الكلام وأفصح به وأفصح عن الامر : الفصيح في كلام العامة : المعرب» .

وفي هذا يتضح معنى البيان والظهور في كلمة «الفصاحة» ، ليس هذا المعنى بعيداً عن الدلالة الاولى ولا عن المعنى الذي اصطلح عليه علماء البلاغة ، وهو رقة الالفاظ وجمالها ، وبيان التعبير ووضوحه .

في القرآن والحديث :

لو مضينا نبحث عن لفظة « الفصاحة » في تراثنا لرأيناها في قوله تعالى حكاية عن نبيه موسى — عليه السلام — : «وأخي هرونُ هو أفْصَحُ مني لسانا » (١) وفي الحديث النبوي الشريف : «أنا افصح العرب بيد أني من قريش» (٢) و«غفر

(١) القصص ٣٤.

(٢) قال عبد الله بن رواحة في مدح الرسول — صلى الله عليه وسلم — :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت فصاحته تنبيك بالخبر .

له بعدكل فصيح وأعجم » وفسره أصحاب الحديث بأن النبي محمداً – صلى الله عليه وسلم – أراد بالفصيح بني آدم ، وبالاعجم البهائم » (١) :

ولا تخرج لفظة (الفصاحة) في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف عن معناها اللغوي وهو الظهور والبيان . وحينما دخلت هذه اللفظة الدراسات البلاغية والنقدية ارتبطت بلفظة البلاغة وصارت صنوها ، وأصبح رجال البلاغة الاوائل لايفرقون بينهما ، بل لم يروا بأساً في أن يستعملوا احداهما مكان الاخرى كما فعل ابوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ (– ٢٥٥هـ) الذي لم يضع حداً فاصلاً بين اللفظتين وانما اجراهما بمعنى واحد في مواضع كثيرة من كتابه « البيان والتبيين » .

الجاحظ :

عرف الجاحظ البلاغة بقوله : «وقال بعضهم – وهو احسن ما اجتبيناه ودوّناه : لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك» (٢): وفي هذا التعريف التقاء الفصاحة بالبلاغة، والنص على امتزاجهما.

والفصاحة – عنده – واسعة المعنى، ولذلك نراه يتحدث عنها وعن الالفاظ كثيراً ، وتعدّ اشاراته في كتابه «البيان والتبيين» من اوسع ما وصل الينا من عهد التدوين الاول . ويرى ان الالفاظ جديرة بالرعاية والاهتمام، يقول : «وقد يستخف الناس الفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع الا في موضع العقاب أو موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر، لانك لا تجد القرآن يلفظ به الا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل

(١) النهاية في غريب الحديث والاثر ج ٣ ص ٤٥٠ .
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٥ .

انه اذا ذكر الابصار لم يقل الاسماع ، واذا ذكر سبع سماوات لم يقل الارضين.
ألا تراه لا يجمع الارض أرضين ولا السمع أسماعا. والجاري على أفواه العامه غير ذلك لا يتفقدون من الالفاظ ماهو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال» (١).

وتكلم على تنافر الحروف فقال : «فأما في اقتران الحروف فان الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير ، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا بتأخير. وهذا باب كبير وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي اليها يجرى» (٢).

وتحدث عن تنافر الالفاظ فقال : «ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر وان كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد انشادها الا ببعض الاستكراه، فمن ذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر ولیس قرب قبر حرب قبر

ولمّا رأى من لا علم له أنّ أحداً لايستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتعتع ولا يتلجلج ، وقيل لهم : ان ذلك انما اعتراه اذ كان من اشعار الجن ، صدّقوا بذلك.

ومن ذلك قول ابن يسير :

لم يضرها والحمد لله شيءٌ وانثنت نحو عزْف نفْسٍ ذهول

فتفقد النصف الاخير من هذا البيت فانك ستجد بعض الفاظه يتبرأ من بعض (٣)

وينبغي أن تكون الالفاظ متماثلة متلائمة كي لايقع بينها التنافر فتصبح كأولاد علّة ، يقول : «وأنشدني أبو العاصي ، قال : أنشدني خلف الاحمر في هذا المعنى :

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠.
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٦٩.
(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٦٥.

وبعض قريض القوم أولاد علّة   يكدّ لسان الناطق المتحفّظ (١)

وقال أبو العاصي : وأنشدني في ذلك أبو البيداء الرباحي :

وشعر كبعر الكبش فرّق بينه   لسانُ دعيٍّ في القريض دخيل

فانه يقول : اذا كان الشعر مستكرها وكانت الفاظ البيت من الشعر لايقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين اولاد العلّات. واذا كانت الكلمة ليس موقعها الى جنب أختها مَرْضياً موافقا كان على اللسان عند انشاد ذلك الشعر مؤونة .

قال : وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ افراغا واحداً ، وسبك سبكا واحدا ، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان .

وأما قوله : « كبعر الكبش » فانما ذهب الى أن بعر الكبش يقع متفرقاً غير مؤتلف ولا متجاور ، وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملسا وليّنة المعاطف سهلة ، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده ، والاخرى تراها سهلة ليّنة ورطبة مواتية ، سلسة النظام خفيفة على اللسان حتى كأنّ البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد » (٢) .

ويرى أن اللفظ كما لا ينبغي أن يكون عاميا وساقطا سوقيا ، فكذلك لاينبغي أن يكون غريبا وحشيا الا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا ، فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي (٣) .

لقد اهتم الجاحظ بالالفاظ اهتماما عظيما وأولاها عناية كبيرة ، وقد دفعه هذا الاهتمام الى أن يقول : والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي

---

(١) اولاد علة : هم بنو رجل واحد من أمهات شتى.
(٢) البيان ج ١ ص ٦٦.
(٣) ينظر البيان ج ١ ص ١٤٤.